نفوس الشعراء[1]

الشعراء وما ادراك ما الشعراء فئة من الناس رُزِقوا من بقاء الذكر اوفر نصيب فهذا السموأل قد خلّد ذكرهُ بلاميته الفخرية التي دارت على الالسنة حتى تمثل بابياتها الكتّاب والخطباء والمحدّثون . وهؤلاء اصحاب المعلّقات السبع قد حرص الادباء على نسخ قصائدهم وحفظها وطبعها وعُنوا بشرحها . وهذا الاعشى والحطيئة والذابغة وجرير والاخطل والفرزدق وابو تمّام وابو الطيّب المتنبي وابو عبادة البحتري ومئات بل الوف غيرهم قد بقي ذكرهم بما نظموا من الشعر فكأنّهم احياء باقون الى يوم الحشر والنشور . ولقد اشتغل الادباء ببيان طبقاتهم ولم ينظروا في ذلك الاّ الى حسن السبك ولطف الاسلوب ورقّة المعنى وجمال التخيّل وهو امرٌ لا بدّ منهُ لمن يبتغي ان يعرف طبقات الشعراء

لكن احدًا من تصدّى للكلام في اشعارهم لم يلتفت الى الينابيع التي نبعت منها فخطر لي انا المعترفة بقصر اليد ان اوجّه النظر الضعيف الى تلك الينابيع لاعرف طبقات نفوسهم التي عنها صدرت افوالهم ومنها جاءت قصائدهم ومقطوعاتهم فرأيتهُ خاطرًا جميلاً لهُ طلاوة الجديد وحلاوة البكر غير اني لم أجد رابيةً ولا تلّة جبل ولا كوّةً فأطلّ منها على نفوس الشعراء ولا غرض لي اطلبهُ فيها سوى الاشراف على نفوسهم فرأيت اكثر تلك النفوس لاصقة بملاذّ الابدان مؤثرة اوامر الطمع والاهواء مشغوفةً بما يلذّ الحواس راكعةً ساجدةً امام ربّات الحسن والجمال او واقفةً بابواب العظماء والكرماء وقفة السؤال . فثلاثة ارباع الشعر العربيّ في باب الغزل وربعهُ في سائر الابواب وهو لتقدير لا نحسبهُ قصيًّا عن الصواب ولو سمت همتهم الى الملاذّ المعنوية ما لصقت نفوسهم بالملاذّ الحسية ولا انقادت لاوامر الطمع والهوى فهم اذًا في عبودية الدنيا كما سبق الايماء حاشا ابا العلاء المعرّي ومن حذا حذوهُ قولاً وفعلاً . فلقد رأيت نفسهُ كملك خرّت الدنيا على قدميهِ فأعرض عنها واقبل يتأمل هذا الكون البديع الناطق بانهُ ابن القدرة الفائقة والحكمة العالية فيالها من نفس شريفة ليس لها غير الفضيلة حلية الاّ وهي القائلة

ولو اني حميت الخلد فردًا ... لما أحببتُ بالخلد انفرادا
فلا هطلت عليّ ولا بارضي ... سحائبُ ليس تنتظم البلادا

---

(١) المرحومة عفيفة كريمة الشيخ سعيد الخوري الشرتوني وقرينة الشاب الاديب الخواجه نصري موسى الشوفاني في ٦ شباط (فبراير) سنة ١٩٠٦ في مدينة بورتو من اعمال البرازيل عن عشرين عامًا

فلو صوّرت نفس هذا الشاعر لتجلّت تلك الفضيلة . ولو صوّرت نفوس الشعراء المقيّدة بحبّ الدنيا المستغرقة للشهوات لبدا لك منها الطمع كالحوت فاغرًا فاهُ والحسد كالنار تتقد في قلوبهم ولكنت تشهد حينئذٍ مع الفرائن في ابي العلاء

قد كان صاحب هذا الثغر جوهرةً كريمةً صاغها الرحمان من شرفِ
عزّت فلم تعرف الايام قيمتها فردّها غيرةً منهُ الى الصدفِ

فكر ابي العلاء

لم يكن ابو العلاء من حيث الفكر سوقةً ولا رعيةً بل كان ملكاً فهو من اعاظم ملوك الافكار ومن اكابر نوّاد العقول واما غيرهُ ممن اطلعت على شعرهم فمعظمهم رعايا افكار من درجوا واصحاب معانٍ متداولة ولو اتفق لاحدهم اسلوب جديد في معنى مطروق ولم يكن قد عثر عليهِ فيها طالع او سمع بادر الى دعوى الابتكار كأنهُ قد فتح مملكةً عظيمة . وربما لو استقرى ما تقدّمهُ من الاشعار لظهر انهُ مسبوق اليهِ لا حقّ لهُ فيهِ الّا ان يُعدّ من باب توارد الخواطر

على انك لو اخذت الابواب التي نظم فيها الشعراء قاطبةً ونظرت الى اصول المعاني لاستطعت ان ترد الدواوين ديوانًا فانهم لا يختلفون الّا في صوَر التعابير وابواب الدخول على المعنى فيكون ذلك الديوان عصارة افكارهم وخلاصة ما ابقت قرائحهم . واما ابو العلاء فقد نظم كثيرًا من المعاني المتداولة لكنهُ جاء بفكرات متعدّدة فيحقّ انهُ بقائد الافكار فلقد نهج سبلاً لم تنهج من قبل . مرّت بخمسة وعشرين ديوانًا غير ديوانهِ ولا ضائع لي فيها الّا الغرض الذي ذكرت فان كان قد سُبق الى ذلك فامرٌ لم اطّلع عليهِ

منزلة ابي العلاء ومنزلة الشعراء عند القوّة العاقلة

لو كان للمصوّر ان يصوّر العقل متصدّرًا في مجلسهِ والشعراء يقبلون عليهِ بقصائدهم التي سجّوا بها نوبات الحسن والجمال او جعلوها حانات لاهل الشراب ومجامع للفتيان لرثى لهم ولبكى لسوء مصيرهم وارام انهم قد تركوا ملاذّ النفس الشريفة الدائمة الى ملاذّ الجسد الدنيئة الزائلة ولكان يهنّئ ابا العلاء ويقرّبهُ ويجلّهُ قدرهُ وبكرم وفادتهُ . ذلك اولاً انهُ لم يرضَ لنفسهِ ان يتمرّس فيما انغمسوا فيهِ كيف لا وهو القائل بما قال

ومن يطهّر بخوف الله مهجتهُ فذاك انسانُ قومٍ يشبهُ الملكا

وثانيًا انهُ استعان ببيانهِ ووقف اشعة ذهنهِ على ارشاد الافكار ودعاء الناس الى الخير فهو المشبّع وصيتهُ الصريحة في قولهِ

عليك بفعل الخير لو لم يكن لهُ من الفضل الاَّ حسنهُ في المسامع

خلافاً لمن قال فيهِ

لقد جاء قومٌ يدَّعون فضيلةً وكلهمُ يبغي مجيئهِ لنا

ولعلك تقول لي ان بعض الشعراء قد نظموا في الحِكَم والنصائح والتوبة والزهد كابن الوردي والمتنبي وابي العتاهية والحريري فلِمَ تنظمهم في سلك ابي العلاء ولِمَ هذا التكلف بهذا الفرير. فقلت أما كفتني جهذا الفرير البصر الصحيح البصيرة فلا لأصرة قرابة او معرفة او التماس منفعة فبيني وبينه ما يزيد على ثمانمائة سنة فانا اعرف اسمهُ واقوالهُ فقط وهو لا يعرف من امري شيئاً ولا سبيل لي فاقول عنهُ كما قال عن نفسهِ في قول المتنبي

انا الذي نظر الاعمى الى ادبي واسمعت كلماتي من به صممُ

واما اني لم انظمهم وامثالهم في سلكهِ فلأن اولئك من السكارى بخمرة الملاذ الجسديَّة ومن اسارى المطامع البشريَّة لكنهما قد عرضت لهم صعوبات فأبصروا طريق الهدى غير ان نفوسهم المصابة بهوى ملاذك الملاذ أبت عليهم ان تسلك ذلك الطريق فكان تأثير قصائدهم المنظومة في تلك الصعوبات مثل تأثير الاغاني في بوق الفونوغراف ثم كان هذا حالهُ فهل يحق لهُ ان يجلس الى جنب مثل ابي العلاء الذي تكاد نفسهُ تكون سالمةً مما يشين الفضل او يقدح في النزاهة كما تدلُّ على ذلك افعالهُ وكلام الذين كتبوا سيرتهُ وعاشروهُ فكم سيفي هذه الارض من قائل خير وفاعل شرٍّ من هم مصداق قول شاعرنا الصافي النفس

رويدك قد غررت وانت حرٌّ بصاحب حيلةٍ يعظ النساء
يحرِّم فيكمُ الصهباء صبحاً ويشربها على عمدٍ مساء
يقول لكم غدوتُ بلا كتاب وفي لذاتها رمس الكساء
اذا فصل الفتى ما عنهُ ينهى فمن جهتين لا جهةٍ اساء

شواهد من اقوال شعراء الملاذ الجسديَّة ومن قول شاعر الطبيب

لا احدَّ من طالع الاشعار العربيَّة ينكر عليَّ شيئاً مما قلت ومع ذلك فقد حسن في عيني ان اروي لكلا الفريقين ما يمثلها للطالع لان الشيء يظهر اتم الظهور متى قوبل بضدهِ قال متنبيهم متغزلاً

يا بعيلكم من سحر مقلي دنفاً يهوى الحياة وأما ان صددت فلا
وقلبي على جمرٍ ذكيٍّ من الهوى وعيناي في روض من الحسن ترتعُ

ان كنتِ ظاعنةً فان مدامعي تروي مزادكمُ وتروي العيسا (١)
خودٌ جنت بيني وبين عواذلي حرباً وغادرت الفؤاد وطيسا (٢)

وقال مستجديًا

ارجو نداك ولا اخشى المطال بمن يا من اذا وهب الدنيا فقد بخلا
يا ذا الذي يهب الكثير وعنده أني عليه باعظم الصدق
امطر عليَّ سحاب جودك ثروةً وانظر اليَّ برحمةٍ لا اغرق

وقلت قصيدة لابي الطيب خالية من السؤال وما اطول باعهُ في افانين الاستجداء فكأنهُ امام بني ساسان

واما ابو العلاء فكان ارفع من ان يقول الشعر ابتغاء الصلة واعلى من ان يصرف نفسهُ عن جمال الخالق الدائم الى جمال المخلوق الزائل ومثلهُ تكون سطوة الجمال البشري على قلبهِ ذاهبةً بهِ الى الغرام بالجمال الالهي

وقال عنترة متغزلاً

احبكِ يا ظلوم فانت عندي مكان الروح من جسد الجبانِ
ولو اني اقول مكانَ روحي خشيتُ عليكِ بادرةَ الطعانِ

وهو في اكثر قصائدهِ يتغزل بعبلة كما يتغزل كثير بعزة وغيلان بمي وقيس بليلى وجميل ببثينة وعروة بعفراء فلهم في ذلك السنة قصائد تصف مكرمات الغرام وتصور ضعف النفس التي غلب عليها حبّ المحاسن الزائلة فمن ذلك ما هو كحبة من كثيب (٣)

اذا رمتُ عنها سلوةً قال شافعٌ من الحسن ابعاد السلو المقابرُ
فيا حبها زدني جوًى كل ليلةٍ ويا سلوة الايام موعدك الحشرُ
فلو انَّ ليلى الاخيليةَ سلَّمت عليَّ ودوني جندلٌ وصفائحُ
لسلَّمت تسليم البشاشة او زقا اليها صدًى من جانب القبر صائحُ

رهبان مدين والذين عهدتهم يبكون من حذر العذاب قعودا
لو يسمعون كما سمعتُ كلامها خرُّوا لعزَّة ركَّعًا وسجودا

واليك مما قيل في الشراب وهو نظرة من سحاب

خليليَّ قد طاب الشراب المورَّدُ وقد عدتُ بعد النسك والعود احمدُ

(١) المزاد جمع المزادة وهي قربة الماء والعيس الجمال البيض (٢) ابو ليس الخيل (٣) كثيب رمل

فهاتا عقارًا في قميص زجاجةٍ كياقوتةٍ في درَّةٍ تتوقدُ
يصوغ عليها الماء شبَّاك فضةٍ لهُ حلقٌ بيضٌ تحلُّ وتعقدُ
فصبوا عقارًا سبَّك الماء كأنها اذا نفخوها جذوةٌ تتأكَّدُ (١)
تدبُّ دبيبًا في العظام كأنهُ دبيبُ نمالٍ في نقًا يتبلَّدُ (٢)

وقد اوصى بعض عبيد الخمرة قال

اذا متُّ فادفني الى جنب كرمةٍ تروِّي عظامي في الممات عروقها
ولا تدفني بالفلاة فانني أخاف اذا ما متُّ ان لا اذوقها

وقد اوصى عبد آخر من عبيد الراح ان تصفَّ لهُ الاقداح حول المقبرة في ابيات شردت عن حافظتي وضاعت ورقة كنت قد كتبتها عليها

﴿ شواهد من قول شاعر التهذيب ﴾

اتجعل تسبيح ربٍّ لا كفاء لهُ او رتلهُ ولا تجمح الى رتلِ
لا تطيعي مراك ايتها النفس فعي المليك فينا ربيبهْ
فالزمي النسك ان عقلتِ وقرِّي من ذوي الجهل كي تسدِّي لبيبهْ
وبما أدام الرزء تكذيب صادقٍ عن خيرةٍ منا وتصديق كاذبِ
الدين انصافك الاقوام كلهمُ وايُّ دينٍ لآبي الحق ان وجبا
وما الغواني الغوادي في ملاعبها لأعيالاتُ وقتٍ أشبهت لعبا
اذا تفكرت فكرًا لا يعازبهُ فساد عقل صحيح هان ما صعُبا
فالبُّ ان ضحَّ اعطى النفس فترتها حتى تمرت وسمَّى جدَّها لعبا
أينا سوى غشِّ الصدور وانما يدالـــ ثواب الله اصلنا قلبا
ودانـــ الناسُ بالجزاء وكونهِ وقال رجالٌ انما انتمُ بقلُ
فاوصيكم اما قبيحٌ فجانبوا واما جميلاً من فعالٍ فلا تقلوا
فاني وجدت النفس تبدي ندامةً على ما جنتهُ حين يحضرها النقلُ
وان صدقت ارواحنا في جسومنا فيوشك يومًا ان يعاودها العقلُ
قد صدَّق الناس ما الالباب تبطلهُ حتى لظنوا عجوزًا تحلب القمرا

(١) الجذوة : الجمرة (٢) النقا : تل الرمل ويتبلد : يختفي

قد فاضت الدنيا بانفاسها على براياها واجناسها
والشعر في العالم حتى التي مكسبها من فضل عرفانها
وكل حيّ فوقه ظالمٌ وما بها اظلم من ناسها

والجسم للروح دار طال ما نقلت هدمًا وحقّ لرب الدار تحويلُ
اخذت ميثاق ايام غررت بها وما على ذلك الميثاق تعويلُ
في قبضة الله اعمارٌ مقسمةٌ لها اذا شاء تقصير وتطويلُ

وشغلُ لم يستغفر الله ذنبهُ احقُّ بهِ من ذكر زينب او جملِ

ولقد حذرتُ على اليقين بخاطري ما كاد يبلغ حذرهُ الانباطا

وارى ملوكًا لا تحوط رعيةً فملا مَ تؤخذ جزيةٌ ومكوسُ

مُلّ المقام فكم اعاشر امةً امرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعيةَ واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم أجراؤها

جهل الديانة من اذا عرضت لهُ اطماعهُ لم يُلفَ بالمتماسكِ

وردنا الى الدنيا باذن مليكنا لنعزّى ولسنا عالمين بما نعزي
ذوو النسك خير الناس في كل موطنٍ وزيهم بين المعاشر خير زي

فلا يغرّنك من فراشنا زمرٌ يتلون في الظلم الفرقان والزُّمرا
يبدي التدين محتالٌ ضمائرهُ غير الجميل اذا ما جسمهُ ضمرا

وعظ الزمان فما فهمت عظاتهِ وكأنهُ في صمتهِ يتكلمُ

كم وعظ الواعظون منّا وقام في الارض انبياه
فانصرفوا والبلاء باقٍ ولم يزلْ داؤك الساه

وكفاتك الشيءُ الذي كنت راجيًا وجاءك بالمقدار ما لم تكن ترجو

اللبيبُ تطبٌ والامور لهُ رحى فهو تدبيرٌ كلها وتدارُ

اذا صفّر اسيادٌ حاسدوك فلا تُرِعْ لذلك والدنيا بسعدك تعترُ
فان الثريا والثخين وحسبنا بهاء وسهيلاً كونهُ مصفّرُ
والعقلُ يزجرُ والطباعُ مع النهى كالفيل يضرب رأسهُ بالصولِ
والحق يثقلُ كل غاوٍ ظالمٍ واخو الديانة ما يحسُّ بثقلهِ
وكيف لا تخبث النفس التي جعلت من جسمها في وعاء كلهُ دنسُ

والجسم كالثوب على روحهِ يلزم ان يخلق او يتسخ

ارواحنا معنا وليس لنا بها علمٌ فكيف اذا حوتها الاقبرُ

النفس عند فراقها جثمانها محزونة لدروس ربعٍ عامرِ
كحمامةٍ صيدت فنُتِّف جيدها اسفاً لتطرحال وكرٍ دامرِ

خالقٌ لا يشكُّ فيهِ قديمٌ وزمانٌ على الانام تقادم

القلبُ كالماء والاهواء طائفة عليهِ مثل حباب الماء في الماء

ولو جزينا على خلائقنا اسلك عنا الحيا فما نزلا

لا يأسَ من الثواب مراقبٌ لله في الايراد والاصدارِ
فترى بدائع انبأت متعمداً ان الجزاء بغير هذي الدارِ

لم يعفُ ربك عن مصرٍّ مازرٍ لكن تجاوز عن مسيءٍ تابا

لن تستقيم امور الناس في عصرٍ ولا استقامت فدا أمناً وذا رُعبا
ولا يقوم على حقٍّ بنو زمنٍ من عهد آدم كانوا في الهوى شعبا

خضبتَ يافعاً بالشيب صبغةً بيضاء عدَّتك البان المخضَّبا
وما كان حبل العيش الا مملَّكاً بعروة ايام الصبا فتقضَّبا

تحلُّ بتنوى او تحلُّ بعفَّقٍ فذلك خيرٌ من سوار وخلخالِ

فقابل ان شئت بين اقوالهِ واقوالهم تجد ان لهُ نفساً لم تكن مطية للطمع والهوى كما ذكرت لك . ولقد تفنن في كرّرهُ من ذمّ مخالطة الناس ومن الانتقاد على القباح السيرة

وشدَّد النكير في ذلك ولا سيما على رجال الدين واذا عارضتهُ اقوالهُ في المرائين بالقول السيد المسيح في الكتاب والله يسجل بيقين انهُ قد عقد كثيرٌ من آيات الانجيل فمن ذلك قولهُ في اخفاء الاحسان

أسرر جميلك واعمل ما هممت بهِ ان المليك على الاسرار مطَّلعُ

هذا واعتم مقالتي اولاً بانني لم ارَ ابا العلاء في نبعة الاسف والغم تلتهب في قلبهِ جمرة الحزن كخطب نزل الاَّ عند ما قُبض والدهُ ووالدتهُ فقد استسلم للجزع واستولى الضعف على نفسهِ ونسي كل ما قالهُ في فائدة الموت وعدم مبالاتهِ بالمصائب وليتني كنت من اهل عصرهِ لكي اشدهُ في يوم ابيهِ قولهُ

تعبٌ كلها الحياةُ فما اعجبُ لاَّ من راغبٍ في ازديادِ

واسمعهُ في يوم امهِ قولهُ

لا استقيلُ زماني عثرةً ابدًا ما شاء فليأتِ انَّ الشهد كالصابرِ

وثانيًا انهُ افرط في ذمّ البشر حتى قال

هل يغسل الناس عن وجه الثرى بشرٌ فما بقوا لم يبارح وجههُ الدنسُ
يبغوت مني مينًا لستُ احسنهُ فان صدقتُ عرتهم اوجهٌ عبسُ

وثالثًا اني اتمس من فحول شعراء العصر ان يهجروا النظم فيما سمّتهُ النفوس ويستعينوا بما يُزقرقهُ من القريحة الشعرية عن خوض المواضيع التي تبعث النفوس على الاعمال الشريفة الا وان الشعر الجيد يستميل القلب ويطرب السمع ويرتبط بالذاكرة فهذا ابو العلاء لاشكَّ انهُ جاء بما ينبهُ الافكار ويهيج الاذهان فشعرهُ روشة ادب وصلاح ومثال لاحوال الدنيا واهلها. فهذه الافكار الصافية من ينبوع نفوسٍ صافية فهو اذا وقع الى ايدي الاعاجم ونقل الى لغاتهم يرفعونهُ على سائر الشعراء ذلك انَّ في بعض اشعارهِ من اشعة العقل ما ليس في دواوينهم ولولا خوف الاطالة لكنت اروي لك من بدائع لهِ ما يأخذ بمجامع قلبك ويريك بعد المسافة بين فطرةٍ وفطرةٍ ولكن قلبي لا يطاوعني ان القي القلم من يدي قبل ان انسج لك قول هذا الفاتح الفكري

لعمرك ما غادرتُ مطلع هضبةٍ من الفكر الاَّ وارتقيتُ هضابها